

على هامس زكري المعري

«داعى الدعاة» مناظر المعري

للدكتور محمد كامل حسين

- ٥ -

من الآثار الأدبية التي تركها المؤيد في الدين «داعى الدعاة» رسائله إلى أبي العلاء المعري . وهي الرسائل التي نهت الجيل الحديث للبحث عن هذا الداعية ، بعد أن ظل مجهولاً زهاء عشرة قرون ، ويرجع الفضل في نشر هذه الرسائل إلى المرحوم الأستاذ مارجوليث المستشرق الإنجليزي ، الذي نقل هذه الرسائل عن كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ، ونشرها لأول مرة بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٨٩٦ ، ثم أعاد نشرها مرة أخرى بمجلة الجمعية الآسيوية سنة ١٩٠٢ ، وقدم لها مقدمة صغيرة ادعى فيها أن هذه المناظرة كانت سنة ٤٣٨ هـ ولكنى

أخالفه في تحديد هذه السنة ، وأذهب إلى أن هذه المناظرة إنما كانت سنة ٤٤٩ هـ ، وعندى ما يؤيد ما ذهب إليه ، فقد نقل ياقوت الحموي أنه « لما كانت المناظرة بين أبي العلاء ، وبين داعى الدعاة ، في ذبح الحيوان ، أمر داعى الدعاة بأن يؤتى بأبي العلاء إلى حلب » . وفي الرسالة الثالثة والأخيرة من رسائل داعى الدعاة ، تصريح بأنه كان في الشام أثناء هذه المناظرة . وهناك نص آخر ورد في « المجالس المؤيدية » على إيمان الخليفة المستنصر الفاطمي « حتى توجه من وجهناه من داعيننا للقاء التركمانية فانهقد بينه (أى بين الداعي) وبينه (أى بين المعري) من المناظرة مكاتبة لا مشافهة . فهذه النصوص تثبت أن هذه المناظرة جرت أثناء خروج المؤيد في الدين لحرب طغرل بك ، وأن المؤيد كان بالشام وفي حلب ، وقد ذكرت في مقالتي السابقة أن المؤيد في الدين خرج من مصر للقاء التركمانية سنة ٤٤٨ هـ وكان بحلب سنة ٤٤٩ هـ ، وتكاد تجمع المصادر على أن رسالة داعى الدعاة الأخيرة وصلت معرة النعمان بعد وفاة أبي العلاء بأيام قليلة ، ونحن نعلم أن المعري توفي سنة ٤٤٩ هـ

واست أدري كيف يطبق شاعر يجيد اللغة الإنجليزية مثلاً ألا يستوعب درامات شيكسبير وبن جونسون ومارلو ، وألا يقرأ منظومات بروننج وشلي ويرون وتينسون وسكوت الطويلة الرائعة التي هي بلا شك خير ما نظم البشر وأحسن ما تفتت به الإنسانية ... ولست أدري كيف يطبق شاعر يجيد اللغة الإنكليزية مثلاً ألا يقرأ ما ترجم إلى هذه اللغة من ملاحم الأقدمين كالإلياذة والأوديسة والإنيادة والكوميديا الإلهية مثلاً وهي تلك الملاحم الخالدة في عالم الشعر ، والتي لا ندعو دعوتنا إلا ليكون لنا مجد شعري يشبه مجدها أو يدنو منه ... ولست أدري كيف يطبق من يجيد اللغة الإنكليزية مثلاً ألا يقرأ كتب النقد الرائعة التي كتبها هازلت أو أرنولد ، ومدنتون ولامبورن ، ورينشارد ، وسبنجارا ، ومن إليهم من أساطين النقد الحديث

وبعد ... فهذا كلام لا يزيد به تمييز أحد من شعراء الشباب الذين نعقد عليهم آمالنا في النهوض بالشعر العربي الحديث ، ولكنه كلام يزيد به حفز هم شعرائنا الذين يرحبون بالنقد ويتشوقون إلى السكال .
وربني ههنا

من التعابير ، وطائفة بينهما من المعاني ، وطائفة بينهما من الأخيلة لقرايح الكثرة الساحقة من شعراء الشباب ... وذلك دليل جلي على فقرهم الثقافي ، ونُدرة اصطلاحهم على الشعر العربي الزاخر بأكبر ثروة لفظية يمتلكها شعر أمة من الأمم ... شعر عاش منذ أكثر من ألفي سنة ، ولا يزال يعيش ، وسوف يعيش ؛ وإن كنا نطالب له عيشاً جديداً وحياة ناضرة مختلفة الأغراض متفارة المقاصد عما اعتاد الشعر القديم - وكل الشعر العربي أو معظمه ، في رأينا قديم

وقد تشترك الفئتان ، الذين يعرفون اللغات الأجنبية والذين لا يعرفونها ، في ذلك العيب الواضح ... أي عدم الاطلاع الطويل العميق على كتب النقد ، قديمها وحديثها ... وعلى دواوين الشعر العربي قديمها وحديثها كذلك . إلا أن تقصير شعرائنا ، أو معظم شعرائنا ، الذين يجيدون لغة أجنبية ، في الاضطلاع على شعر تلك اللغة ، واستيعاب ما نقل إليها من أشعار اللغات الأخرى ، قديمها وحديثها ، هو تقصير لا تبرره أسباب وجيهة ، اللهم إلا الغفلة والكسل وتراخي المهمة ...

وإما نادياً معه في المناظرة لمرکز المؤيد في الدعوة الفاطمية والدولة الفاطمية

ومهما يكن من شيء ، فالمؤيد في هذه المناظرة ضيق الخناق على أبي العلاء ، وكان أبو العلاء يتلمس الطرق للرب من خصمه فأخذ يحاوره ويحاول الفرار من موضوع المناظرة ؛ فسؤال داعي الدعاة من ناحيته يجذبه نحو موضوع المناظرة ؛ فسؤال داعي الدعاة كان عن الأسباب التي أدت بأبي العلاء إلى تحريم أكل اللحوم والألبان . فكان جواب أبي العلاء في موضوع إرادة الله في الخير والشر ، ثم البراءة من أشعار قالها بمض للمحدثين . أما سؤال الداعي فلم يجب عليه جواباً شافياً . ولو طالت حياة أبي العلاء لفطر الأدب العربي بثروة أدبية فلسفية لها قيمتها

أما ما قيل من أن المؤيد داعي الدعاة أمر بأن يحمل إليه المعري بحلب ليخيره بين الإسلام والموت ، وأن المعري خاف على نفسه ، فشرب السم ؛ فهذا ما لم يقبله أحد من القدماء ولا المحدثين

والآن نتساءل هل كان المعري يدين بذهب الفاطميين ؟ فقد جاء في كتاب « الفلك الدوار في سماء الأئمة الأطهار » أن المعري كان أحد دعاة الحاكم بأمر الله الفاطمي وابنه الظاهر ؛ ولا أدري من أين استقى مؤلف هذا الكتاب هذا الخبر إذ لم يقع بين يدي من كتب الدعاة ما يؤيد هذا الزعم ، بل لم أجد داعية من دعاة المذهب الفاطمي يشير إلى أن أبا العلاء كان من زمرة من ولو صح هذا الخبر لوجدت الدعاة على عادتهم يطنطنون بذكر كل نابغة يظهر بينهم ، حتى لو فرض أن أبا العلاء اتخذ التقية لنفسه وستر حقيقة مذهبه ومرتبته في الدعوة لما خفي ذلك عن كبير دعاة المذهب وهو المؤيد في الدين ، ولما احتاج الداعي الأكبر إلى مناظرة المعري لكشف ستره ومعرفة حقيقة مذهبه ، لأن الداعي الأكبر عنده سجل الدعاة ، وهو أعرف الناس بهم

حقيقة نجد في لزوميات أبي العلاء بعض العقائد الفاطمية ، ولكن هذه الآراء التي ذكرها المعري لا تقوم دليلاً على اعتناقه المعري لهذا المذهب . فقد كانت التيارات الفكرية في عصر المعري تتحدث بهذه الآراء ، وكان المعري في وسط ينضج

وهناك بعض نصوص أخرى تؤيدان هذه المناظرة التي كانت بين الأدبيين العالمين حدثت سنة ٤٤٩ هـ . وسبب هذه المناظرة كما حدثنا المؤيد في مجالسه أنه جرى ذكر أبي العلاء المعري في مجلس الناظر بحلب ، فهجا الحاضرون أبا العلاء وأغروا الناظر بدمه ، وادعوا أن الغيرة على الدين تبيح قتله ، ولكن المؤيد في الدين اقترح على الحاضرين أن يجرد لأبي العلاء من يحاجه وينظره حتى ينكشف عواره وينحط قدره بين معاصريه ، ويتخذ الناظر من هذه المناظرة ذريعة للقضاء على هذا الزنديق الخارج عن الدين ، ثم نشط المؤيد لمناظرته تلك المناظرة التي كانت من أسباب خلود المتناظرين

ويخيل لي أن المؤيد في الدين لم يسرف في الحكم على أبي العلاء لمعارف معاصريه ، ولم ير في عقيدة أبي العلاء ما كان يراه غيره ، فقد رمى المعري بالإلحاد والتمطيل والخروج على دين الجماعة بل لا تزال عقيدة أبي العلاء إلى يومنا هذا موضع نقاش بين الأدباء والعلماء . أما رأي المؤيد داعي الدعاة في أبي العلاء فقد وضح في مجالسه بقوله : قد انتهى إليكم خبر الضرير الذي نبخ بعمرة النعمان وما كان يعزى إليه من الكفر والظلمانيان على كبر الرجل متقشفاً ، وعن كثير من المتأكل التي أحل الله له متحققاً . فهذا النص إن دل على شيء فإنما يدل على أن المؤيد لم يقبل كلام الناس في أبي العلاء ، ولم يذهب مذهبه في اتهام دينه ، بل هذا النص دفاع عن تحريم المعري للحوم تعقفاً منه وتقشفاً

ويخيل لي أيضاً أن غرض المؤيد من هذه المناظرة أن يعرف حقيقة مذهب أبي العلاء ، وأن يستوضح أسرار فلسفته وأسرار عقيدته فقد يكون أبو العلاء من الذين يتخذون التقية والستر حجاباً لهم ، ويوهمون الناس بغير ما يبطنون ولذلك بدأ المؤيد رسالته الأولى بشيء من الظرف والإعجاب بأبي العلاء ، ثم تراء في الرسالة الثانية يسخر بأبي العلاء ويهكم به ، وفي الرسالة الثالثة بصرح بأنه لم يجد عند أبي العلاء ما كان يأمله

أما جواب المعري ؛ فيظهر منه أن أبا العلاء قد سمع بأمر المؤيد في الدين داعي الدعاة من قبل ، وكان يعرف مقدرته وحجته فبالغ في تعظيمه وتقظيمه ، إما خشية على نفسه من سطوة المؤيد